

عرض للاتجاه اللغوى فى تفسير التبيان

للدكتور سيد مرتضى آيت الله زاده الشيرازى
جامعة طهران—كلية الالهييات و المعارف الاسلاميه

ان ثقافة الشيخ الطوسى كانت نموذجاً من ثقافة العلماء فى القرن الخامس . ذلك القرن الذى حفل بنتاج خصب للعقلية الاسلاميه فى أوج نضجها و رقيها فكان نشيطاً فى التأليف و التحقيق و كانت ثقافته و آراءه موضع احترام القوم فى عصره و بعد عصره فقد أثنوا عليه و عولوا على تصانيفه فقد أخذ العلم على جماعة عرفوا بالجمع و الاحاطة فكان مثلهم فى الجمع و الاحاطة . على أنه لم يكن متعصباً ولا مقلداً و انما كان حرالفكر مستقل الرأى مع سماحة فى النفس و نبل فى الخلق .

و أما أسلوبه ، فأسلوب العالم المتزن الطويل النفس ، الخبير بأساليب الحوار و الجدل يعرض المسأله بايجاز و يورد أحسن ما قيل فيها من الآراء و الحجج . ثم ينقد و يقوم و يضعف و ينقض أو يقوى و يستحسن . و يمتاز الطوسى بالدقة و الأمانة فى النقل و الرواية فلا يذكر شاهداً إلا معزواً إلى قائله ولا خبراً إلا مسحوباً بسنده — اللهم إلا ما ذهل عن حافظته و حسبنا دليلاً على دقته و أمانته تأليفه القيم ، التبيان فى تفسير القرآن الكريم . ففى هذا التفسير نرى الطوسى بكل ثقافته و صورته العلميه . ففيه صورة الطوسى المحدث و الفقيه و الأصولى و الكلامى و الطوسى الأديب ، النحوى ، اللغوى ، المرفه الحس الذواق لجمال النصوص القرآنيه من جميع نواحيها و من أحب أن

يشاهد الصورة الحقيقية التي تمثل جميع جوانب حياة الطوسي الثقافية فليُنظر إلى التبيان.

ان تفسير التبيان للشيخ الطوسي يعد نموذجا ومثلا واضحا لمقدرة الطوسي العلمية و الثقافية . إذ انه يمثل بصورة رفيعة الثقافات التي اكتسبها خلال الاعوام التي مرت في حياته .

ويحدثنا الطوسي عن ظروف تأليف تفسيره بأنه لم يجد بين الإمامية قديما وحديثا من عمل كتابا يحتوي على تفسير جميع القرآن ويشتمل على فنون معانيه . فأراد الطوسي ان يسد هذا الفراغ بتفسيره لكلام الله عز و جل ، لأن الذين كتبوا من قبله لم يأثروا بشيء إلا النقل عن كتب الحديث و اثبات الروايات في تفسيرهم دون أن يستوفوا ذلك و أما علماء العامة من المفسرين ، أمثال الطبري فكان بين مطيل في جميع فنون القرآن و بين مقصر اقتصر على ذكر غريبه و معاني ألفاظه و سلك الباقون المتوسطون في ذلك مسلك ما قويت فيهم منتهم و تركوا ما لا معرفة لهم به فان الزجاج و الفراء و اشبههم من النحويين افرغوا وسعهم فيما يتعلق بالاعراب و التصريف ، و مفضل بن سلمة و غيره استكثروا من علم اللغة و اشتقاق الألفاظ و المتكلمين كأبي علي الجبائي و غيره صرفوا همتهم إلى ما تتعلق بالمعاني الكلامية و منهم من أضاف إلى ذلك الكلام في فنون علمه فأدخل فيه ما لا يليق به من بسط فروع الفقه و اختلاف الفقهاء كالبلخي و غيره و لهذا كله فهو يشعر بأن الأمة في حاجة ماسة إلى تفسير لكلام الله و لم يك وحده يحس بهذه الفجوة بل ان جل العلماء قديما و حديثا أحسوا بهذا النفس فانبرى بينهم و شمر عن ساعديه ليأت بتفسير يذكر في مواضع كثيرة منه أدلة الإمامية التي يخص بهم الاستدلال على صحة مذاههم (١) هذا ، و التبيان ينطوي على نواحي متعددة ففي كل ناحية يبرز لنا الطوسي

(١) راجع مقدمة تفسير البيان للشيخ الطوسي .

بشخصية جديدة لم نكن نعرفه حتى الآن أو لم يكن معروفاً لدنيا بهذه الصورة .

فهناك الطوسى البلاغى . والطوسى اللغوى و الطوسى النحوى والطوسى الأديب ، فالطوسى يحتاج إلى دراسة عميقة و صادقة في كل ناحية من هذه النواحي و حسبنا أن نلتقط جميع هذه الجوانب من تفسيره التبيان . والذى يهمننا الآن هنا أن نشير إلى نبذة من هذه الجوانب وهى الناحية اللغوية للتفسير لأن الطوسى قد أودع في تفسيره مجمل الأصول اللغوية العربية وأمّهات المسائل الهامة فيها مع ذكر مصادرها التى فقدت كلها أو غالبيتها ، فهذا التفسير مودع تلك المصادر الهامة التى تهتم الباحثين فى الجوانب اللغوى و التى كان التبيان من مراجعها الهامة لا سيما هناك مصادر فقدت أو احترقت ولم يكن لدينا نسخاً كاملة منها من مثل تفسير الرمانى و كثيرا من كتاب العين للخليل و اننى اعتقد اذا تورقنا التبيان يمكن لنا أن نلتقط مقدارا كثيرا من تفسير الرمانى و كتاب العين للخليل و غيرها من مصادر اللغة و التفسير .

أضواء على الاتجاه اللغوى عند الطوسى فى التبيان :

تجلت ثقافة الطوسى العربية و الدينية فى تفسيره التبيان الذى يعد دائرة معارف عربية واسعة الذبوع ، فلقد عرض الطوسى فيه للغة و النحو و التصريف و الاشتقاق و القراءات و البلاغة و غيرها من العلوم العربية فى مناسبة حديثه عن الآيات القرآنية فى سعة بسطة و قوة عرض و عظمة دراية بالمأثور و المام بالمنقول . و أضاف الى كل ذلك ذوقه و شخصيته فى التفسير و الشرح و البيان ولا ضير أن نلقى أضواءً على الاتجاه اللغوى عند الطوسى فى تبيانته لتكون حافزاً على تقديم بحوث لغوية قيمة فى هذا السفر الجليل .

معاني اللغة في التبيان :

١- يعرض الطوسي في كل آية و موضوع للألفاظ اللغوية بالتفسير والشرح مسلماً بثتى فروع الكلمة وأصولها و بما قاربها أو شابهها من الألفاظ والمشتقات. يفسر مثلاً "الرحمن الرحيم"، فيقول : هما إسمان مشتقان من الرحمة موضوعان للمبالغة و في رحمان خاصة مبالغة فان ارادوا المبالغة حملوا على فعلان و فعل كما قالوا غضب فهو غضبان .

٢- فهويتعرض لفقهاء اللغة و هل الكلمة من أصل عربي أم أنها من الكلمات المعربة والدخيلة ، فيقول : و قال بعضهم : ان لفظة الرحمن ليست عربية و إنما هي ببعض اللغات كقوله تعالى "قسطاس" فأنها بالرومية و استدل على ذلك بقوله تعالى : قالوا ما الرحمن — انكاراً منهم لهذا الاسم ولكن الطوسي يرفض هذا الفرض ويقول و الصحيح أنه معروف اشتقاقه من الرحمة ويدعم رأيه بقول اللغويين و أشعار الجاهليين و يقول في تفسير قوله تعالى "الحمد" و معنى الحمد لله الشكر لله خالصاً و قال بعضهم الحمد لله ثناء عليه بأسمائه ثم يرجع القول الأول فيقول : والأول أصح في اللغة لأن الحمد والشكر يوضع كل منهما موضع صاحبه .

٣- قال ابن جريج إنما سميت اليهود يهودا لقولهم إنا هدنا إليك قال أعرابي يؤخذ بقوله على ما قال أبو عبيدة : فإني من مدحه هائد أي تائب ، أي لتوبتهم من عبادة العجل . و قيل إنما سموا يهودا لأنهم نسبوا إلى يهودا ، أكبر أولاد يعقوب (عليه السلام) فعربت الذال دالا . (١)

٤- النصارى ، جمع نصران كقولهم سكران و سكارى و نشوان و نشاوى و قد سمع في جمعهم أنصار بمعنى النصارى و في الأئتى

(١) التبيان ج ١ ص ٢٨١ .

نصرانة إنما سموا بذلك لنصرة بعضهم بعضا وقيل : لانهم نزلوا أرضا يقال لها "ناصره" و كان ينزلها عيسى عليه السلام فنسب إليها .
فقيل عيسى الناصري وقيل : لقوله تعالى "من أنصاري إلى الله" (١)

٥- في جبريل ست لغات . جبرائيل . جبرئيل . جبرال . جبريل . جبرال . جبريل و جبرين و جبرائيل و ميكائيل إسمان أعجميان أعربا وقيل ان "جبر" عبد و "ايل" الله مثل عبدالله و صنف ذلك أبو علي الفارسي من وجهتين أحدهما : أن ايل لا يعرف في أسماء الله في لغة العرب و الثاني : أنه لو كان كذلك لأعرب آخر الكلمة كما فعل في ساير الأسماء المضافة (٢)

٦- فنراه أيضا يكثر من اتيان المعاني اللغوية الحقيقية كانت أو مجازية ففي تفسير قوله تعالى "المغضوب" يقول : أصل الغضب الشدة ومنه الغضبة ، الصخرة الصلبة الشديدة المركبة في الجبل المخالفة له ورجل غضوب شديد الغضب و الغضوب الحية الخبيثة لشدها و الغضوب الناقة العبوس .

٧- و كذلك نجده يأتي باللغة و يظهر لنا القرابة الوثيقة بين جذور الكلمات و ما تفرع عنها في تسلسل متطور من المعنى الحقيقي للكلمة الى المعنى المجازي المستعمل : فيقول في تفسير قوله تعالى "المفلحون" هم المنجحون . . . و الفلاح النجاح قال الشاعر . . .

اعقلى ان كنت لما تعقلى ولقد أفلاح من كان عقل

يعنى من ظفر بجأته و تقول أفلاح يفلاح افلاحا و تقول فلاح يفلاح فلاحا و فلاحا و الفلاح البقاء و . . . و أصل الفلاح القطع . . . و منه قيل للأكار فلاحاً لانه يشق الأرض و الفلاح المكارى لانه يقطع الأرض .

(١) التبيان ج ١ ص ٢٨١ .

(٢) التبيان ج ١ ص ٣٦٢-٣٦٣ .

٨- فهو يؤمن أيضا بالاتساع اللغوى وذلك اذا اقتضى الحال فيقول في تكرار الرحمن الرحيم : ان عاده القوم تكريرا لمعنى بلفظين مختلفين اتساعا في اللغة.

٩- لا يستشهد بالالفاظ النادرة واللغات الشاذة فاننا نراه يقول : ومتى كان التأويل يحتاج إلى شاهد من اللغة فلا يقبل من الشاهد إلا ما كان معلوما بين أهل اللغة ، شائعا بينهم وأما طريقة الأحاد من الروايات الشاردة والالفاظ النادرة فانه لا يقطع بذلك ولا يجعل شاهدا على كتاب الله. (مقدمة التبيان)

١٠- فهو شديد الاستقصاء للمعاني اللغوية للالفاظ وتحريه في تحديد المعنى اللغوى تحديداً واضحاً ، فالطوسى عند ما يتعرض للقرآن من الوجهة اللغوية وغيرها ، لا ينساق وراء صناعته كسائر اللغويين فينصرف و يبعد عن جانب المعنى و يأخذ بالظاهر ، بل نراه يجعل كل همه - حيثما كان هناك آراء مختلفة لغوية - في تبين مقاصد اللغة من الناحية التى تخدم تفسير القرآن و تنسق معانيه و هو يميل في تفسيره اللغات الى ترجيح الاستعمال المستفيض الذى هو بمنزلة الخبر المتواتر فيقول في تفسيره "جاء هم رسول" المعنى بالرسول محمد (ص) و يجوز أن يعنى به هاهنا الرسالة كما قال كثير . . . و هذا ضعيف لأنه خلاف الظاهر قليل الاستعمال. (١)

١١- و الطوسى يكثر من الاستشهاد بأشعار الجاهليين و الإسلاميين و بأقوال المولدين . و الفلسفة اللغوية ظاهرة جليلة في التبيان حيث نراه يحاول رد الفروع اللغوية إلى أصولها و المتشابهات إلى أصل واحد و يحاول أن يجعل بين الأصول المختلفة وجوه صلة و تناسب كما رأينا في النماذج التى سبقت الإشارة إليها.

١٢- و يذهب الطوسى الى الأبدال اللغوى و يستدل له بشواهد

(١) التبيان ج ١ ، ص ١٠١ ، و راجع المقدمة للتبيان.

كثيرة في اللغة ومن مثل ذلك كلامه عن الصراط: قرأ بالسين وبالصاد واشم الصاد زائاً وفي بعض الروايات اشمامها الزاء ما كان فيه ألف ولام وأما الصاد اذا سكنت وكانت بعدها دال نحو يصدر و فاصدع و يصدفون فاشم الصاد الزاء... فمن قرأ باشمام الزاء فالمؤاخاة بين السين والطاء بحرف مسجور من مخرج السين و هو الزاء من غير ابطال للأصل ومن قرأ بالصاد فلمؤاخاة بين الصاد والطاء بالاستعلاء والاطباق.. والقراءة بالصاد أحسن. ثم يشرع في تفسير كلمة الهداية فيعود مرة أخرى الى كلمة "الصراط" ويستشهد بقول جرير بأنه معناه الطريق:

أميرالمومنين على صراط اذا اعوج الموارد مستقيم

وقول الشاعر: "فصد عن نهج السراط الواضح" وقيل انه مشتق من مسترط الطعام وهو ممره في الحلق و الصاد لغة قريش وهي اللغة الجيدة وعامة العرب يجعلونها سينا و الزاء لغة لعذرة... يقولون ازدق قيجعلونها زائاً اذا سكنت.

١٣- و يقول في تفسير قوله تعالى: "... وفومها وعدسها الخ ...". انه الثوم أبدل الثاء فاء كما قالوا جدث و جدف و أثافي و أثاثي (١).

١٤- كذلك نرى الطوسي يعالج الآيات القرآنية من الناحية النحوية و يستخدمه لتفسير كلام الله و مبيها لمعانيه و موضحاً لأغراضه فهو يرجح اعراباً على اعراب و يحمل الأسلوب على وجه دون وجه متى ما كان ذلك يبين المعنى المقصود و يضيف على النحو أهمية خاصة في تفهم القرآن و جوانب بلاغته و من ذلك قوله تعالى "يا عيسى بن مريم" يحتمل عيسى أن يكون منصوباً مثل ما تقول يا زيد بن عبدالله و هو الأكثر في كلام العرب و انما يجوز ذلك إذا وقع الابن

بين علمين . . . ويحتمل ان يكون عيسى في موضع الضم و يكون ندائين كأنه قال يا عيسى يا ابن مريم (١) و يقول في تفسير قوله تعالى قال الله : " هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم الخ . . . " فيوم ظرف للقول وهذا إشارة إلى ما تقدم من قوله تعالى : اذ قال الله يا عيسى بن مريم . وجاء على لفظ الماضي و ان كان المراد به المستقبل . . . و ليس ما بعد قال حكاية في هذا الوجه . . . و يجوز ان يكون المعنى على الحكاية و تقديره : هذا يوم ينفع أى هذا الذى اقتصصنا به يقع أو يحدث يوم ينفع فيوم خبر المبتدأ الذى هو هذا الأمر إشارة إلى حدث وظروف الزمان يكون أخبارا عن الاحداث و الجملة في موضع نصب بأنها في موضع مفعول . قال الفراء : يوم منصوب لأنه مضاف الى الفعل و هو في موضع رفع بمنزلة يومئذ مبنى على الفتح في كل حال . . . قال الزجاج هذا خطأ عند البصريين . . . و يجوز هذا يوم سنوئاً على إضمار هذا يوم ينفع فيه الصادقين صدقهم . . . وهكذا نرى في تفسيره كثيرا من آراء علماء النحو مبسوطة ومشروحة قد يميل الى رأى و يترك الرأى الآخر وقد يكتفى بسرد آراء النحاة واختلاف البصريين والكوفيين في المسألة و حيناً ثالثاً يأتي برأيه الخاص فيها . (٢) و كان الطوسى يؤمن بالقياس في النحو سالكا نهج سيبويه و الفراء و الفارسي و الرماني و ابن جنى و أتربهم في هذه السبيل .

١٥- كذلك يقول في تفسير قوله تعالى : "لعلكم تشكرون" معناه لكي تشكروا ، وهذه لام الغرض فالطوسى يسخر النحو ليستدل به على صحة عقيدة كلامية و ابطال رأى المجبرة فيضيف على ذلك : وفيه دليل على فساد قول المجبرة ان الله تعالى ما اراد من الكفار الشرك لانه لو اراد كفرهم لقال لتكفروا و ذلك خلاف القرآن .

(١) سورة المائدة .

(٢) سورة الانعام ص ٦١٠ .

١٦- ونراه حيناً يرد على المفسرين آرائهم النحوية فيقول في قوله تعالى: ألم تعلم ان الله له ملك السموات... انه التقرير والتنبيه الذى يؤدى إلى معنى الايجاب كما قال جرير: أستم خير من ركب العطايا... وأنكر الطبرى ان يدخل حرف الاستفهام على حرف الجحد بمعنى الاثبات و البيت الذى انشدناه يفسد ما قاله و ايضا قوله: أليس ذلك بقادر... وقوله: أليس الله بكاف عبده... و غير ذلك يفسده ما قاله. (١)

من مصادر التبيان :

ان كتاب التبيان الذى يعد من أهم كتب التفسير وأصوله حافل بالعديد من الآراء والمصادر التى اعتمد الطوسى عليها ورجع فى تفسيره إليها و استدل بأرائها حيناً ونقدها حيناً آخر وأضاف إليها اضافات حيناً ثالثاً ومن أجل اعطاء صورة واضحة عن التبيان رأيت أن أشير فى خاتمة هذا العرض السريع إلى أهم المصادر التى لفتت نظرى ولاشك أن فى معرفة هذه المصادر ما يوضح لنا ايضاحاً جلياً الكثير من ثقافات الشيخ الطوسى واتجاهه الفكرى معاً ومدى تأثره بالمفسرين الذين وجه نظرتهم إليهم.

من مصادر اللغة و النحو :

قد احتوى تفسير التبيان للطوسى على كثير من الآراء اللغوية والنحوية ويعد موسوعة غنية لمن يريد أن يراجع أقوال العلماء واللغويين فى تفسير الذكر الحكيم وقد أتى الشيخ الطوسى بكمية كبيرة من أقوال علماء مدرستي البصرة والكوفة ومن مثل ذلك آراء الخليل بن احمد فى اللغة وتفسيره اللغوية وقد استفاد الطوسى من كتاب العين للخليل كثيراً وتفسيره يزخر بأراء الخليل فى اللغة

والإشتقاق مع أن كتاب العين للخليل قد فقدت و لكن يمكن ان تستخلص من التبيان الكثير من هذا الكتاب المفقود. ولوعنى بعض الباحثين لهذا الامر لآدى خدمة جلى بالنسبة إلى اللغة العربية .

لغة القرآن والدين (١)

الف - ينقل من الكتاب سيبويه (م ١٨٨ هـ) و يستشهد ببعض آراءه النحوية. (٢)

ب - الفراء أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الباهلي (م ٧٢ هـ). (٣) و هو أول من قعد لدرس تفسير القرآن في مسجد من مساجد بغداد كما كان يلقي غير ذلك من دروس اللغة و النحو. (٤)

ج - الزجاج. أبو اسحاق ابراهيم بن السرى بن سهل (٥) و كان من أشهر تلاميذ المبرد وله معنى القرآن. او اعراب القرآن و معانيه و غير ذلك (٦)

د - أبو علي الفارسي. الحسن بن أحمد (أو محمد) بن عبد الغفار

(١) يعتبر الخليل بن أحمد الفراهيدى (م ١٧٥ هـ) رائد المعجمات العربية الذى ابتكر التأليف المعجمى و هو مبتكر علم العروض و مخترع علم الموسيقى العربية و منهجه فى معجمه المعروف بالعين قائم على الصوت و سلمه اللغوى يبدأ بحروف الحلق و يبدأ بالصعود تدرجاً حتى تنتهى الى الشفة و جعل ترتيب الحروف هكذا:

ع . ح . هـ . غ . خ . ق . ك . ج . ش . ض . س . ز . ط . ت . د . ذ . ظ . ز . ث . ر . ل . ن . ف . ب . م . و . ي . ا .

(٢) التبيان ج ١ ص ٦٤١ و ٨٣٣ ط طهران.

(٣) التبيان ج ١ ص ٦٤٨ و ٤٦٩ و ٦٥٤ و ٦٧٩ ط طهران.

(٤) تاريخ الادب العربى ج ٢ ص ١٩٩ كارل بروكلمان.

(٥) التبيان ج ١ ص ٦٤٠ و ٦٤٦ و ٦٥٤ و ٦٧٩ و ٦٨٣ و ٦٧٩ ط - طهران.

(٦) تاريخ الادب العربى ج ٢ ص ١٧١ كارل بروكلمان.

الفارسي الشيرازي (١) و هو من تلاميذ ابن السراج والزجاج ، وله كتاب اعراب القرآن ومصنفات أخرى - (م ٣٧٧هـ). (٢)

هـ - أشعار الشعراء من الجاهليين والاسلاميين وبقول المحدثين والاستعمالات الشائعة عند العرب (٣). و للطوسي رأى خاص بالنسبة الى الاستشهاد بأشعار العرب فهو لا يأتي بهذه الشواهد اثباتا لاعجاز القرآن وفصاحته بل انه يأتي بها قسرا و هو مستير في الاتيان بهذه الشواهد لا مخير فلنأت نسمع منه ما يقول في مقدمة تفسيره التبيان :

ولولا عناد الملحدين و تعجر فهم لما احتيج الى الاحتجاج بالشعر وغيره للشبيء المشته في القرآن لان غاية ذلك ان يستشهد عليه ببيت شعر جاهلي أو لفظ منقول عن بعض الاعراب او مثل سائر عن بعض أهل البادية و لا يكون منزلة النبي (ص) و حاشاه من ذلك أقل من منزلة واحد من هؤلاء و لا ينقص عن رتبة النابغة الجعدي و زهير بن الكعب و غيرهم و من طرائف الامور ان المخالف اذا اورد عليه شعر من ذكرناه و من هو دونهم سكتت نفسه و اطمأن قلبه و هؤلاء يرضى بقول محمد بن عبدالله ابن عبد المطلب و مهما شك الناس في نبوته فلا مرية في نسبه و فصاحته فانه نشأ بين قومه الذين هم الغاية القصوى في الفصاحة و يرجع اليهم في معرفة اللغة . . . الى ان يقول : و قد علمنا انه ليس بأدون الجماعة في الفصاحة و كيف يجوز ان يحتج بشعر الشعراء عليه و لا يجوز ان يحتج بقوله عليهم و هل هذا إلا عناد محض و عصبية صرف و انما يحتج علماء الموحدين بشعر الشعراء و كلام البلغاء اتساعا في العلم و قطعا للشغب و ازاحة للعلة و إلا فكان يجب ألا يلتفت الى جميع ما يطعن عليه لانهم ليسوا بأن يجعلوا عيارا عليه باولى من ان يجعل هو عليه السلام

(١) التبيان ج ١ ص ٦٤١ و ٦٤٦ و ٦٤٩ و ٦٣٣ ط - طهران .

(٢) تاريخ الادب العربي ج ٢ ص ١٩٠ كارل بروكلمان .

(٣) التبيان ج ١ ص ٣٥٥ و ٣٣٤ و ٣٤٤ و ج ٢ ص ٤٩٦ و ٣٩٢ و ١٢٤ و

١٠٥ و ٣٥٨ و ١٥ و ٨٩ ط - بيروت .

عياراً عليهم (انتهى). ولهذا الرأي من الأهمية والصواب ما لا يخفى على من درس الأدب الجاهلي وما قيل في انتحاله. (١)

من مصادر التفسير :

و جدير بالذكر ان أنوه هنا ببعض مصادر التفسير من حيث أهميتها و الاطلاع على المراجع الهامة التي استقى الشيخ الطوسي منها تبياناه ففي طوايا تفسير التبيان نرى الشيخ يتطرق بأسماء تفاسير مختلفة و متنوعة كتفسير البلخي و الرماني و محمد بن بحر و الزجاج و الطبري و من خصائص القرآن لحسين بن علي المغربي (٢) إلى غير ذلك من التفاسير.

و قد نقد هذه التفاسير في مقدمة تفسيره و كثيرا ما ينقل عن هذه التفاسير شارحاً الآيات القرآنية او انه ينقد ها بنقد ينبأ عن اطلاع وسعة باع و قد استفاد من بين تلكم التفاسير تفسير أبي مسلم محمد بن بحر الأصفهاني و تفسيره هذا جامع التأويل لمحكم التنزيل (٣) و قد لعبت أيدي الزمان بهذا التفسير فأبادته و قد قام الأستاذ سعيد الأنصاري من الهند بالتقاط نصوص هذا التفسير من مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير للفخر الرازي و سماه مللتقط جامع التأويل لمحكم التنزيل طبع في ككته عام ١٣٣٠ . و الشيخ الطوسي يكثر من الاستشهاد بقول أبي مسلم في لغوياته و تفسيره للآيات القرآنية. (٤)

بين الطوسي و الرماني :

و ننتقل الى ناحية أخرى في هذا العرض السريع و هي موازنة

(١) ان بعض المستشرقين من مثل مارجليوث و الذاهبين على مذهبه أمثال الدكتور طه حسين يلجئون في كلامهم عن نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي بأنه حادث بعد الوقوع : اي ان المسلمين انتحلوا الأشعار لأسباب عديدة فيها الدفاع عن بلاغة القرآن.

(٢) التبيان ج ١ ص ٩ و ٣٠٩ و ٣١٨ ط - بيروت.

(٣) ابن النديم ص ١٩٦ الفهرست.

(٤) انظر التبيان ج ١ ص ٣١٩ و ج ٢ ص ١٣٦ ط بيروت.

خاطفة بين آراء الطوسي والرماني من تفسيريهما و ان كان تفسير
الرماني مفقودا إلا ان الطوسي يشير اليه كثيرا وقد وصفه الطوسي في
مقدمته بأنه أصلح من سلك في التفسير مسلكا جميلا وأصلح ما صنف في
هذا الباب لولا اطالته فتفسير الطوسي يمكن ان يكون جامعا للكثير من
تفسير الرماني (الجامع) ولوقام أحد منا بما صنعه الاستاذ الانصاري
بالنسبة الى تفسير أبي بجر لأسدى خدمة عظيمة للقرآن و للعلم. (١)

موازنه قصيرة بين الطوسي والرماني

ولأجل أن نرى مدى تأثير الشيخ الطوسي بالآراء اللغوية
للرماني نأتي بنماذج للموازنة بينها:

(١) أبو الحسن علي بن عيسى الرماني الذي ولد سنة ست وتسعين و مائتين
من الهجرة بمدينة سامراء او ببغداد ونشأ نشأة فقيرة. و اشتغل بطلب العلم
و استعان على كسب قوته بالوراقة و أخذ اللغة و النحو عن جماعة من شيوخ
العلم مثل أبي بكر بن دويد و أبي بكر السراج و الزجاج، و تخرج في الكلام
على يد أستاذه المعتزلي ابن الأخشيد و كان ميالا لعلوم المنطق و الفلسفة
و النجوم و برع في علوم القرآن و التفسير و الفقه فيها و توفي سنة ٥٣٨٦ هـ. و من
كتبه التي تذكرها المصادر: التفسير الكبير، الجامع في علوم القرآن، النكت
في اعجاز القرآن، الفات القرآن، شرح معاني القرآن للزجاج، التفات القرآن بشرح
شرح الالف و اللام للمازني، شرح كتاب الموجز و الأصول لابن السراج، كتاب
التصريف، كتاب الهجاء كتاب الايجاز في النحو، كتاب المبتداء في النحو، الاشتقاق
الصغير و الألفاظ المترادفة. و تذكر المصادر ان له ما يقرب من مائة كتاب
و راجع ترجمته في: ١- بروكلمان الملحق ١/١٧٥ - ٢- معجم الأدباء لياقوت
الحموي ط مرجليوث ٥/٢٨٠ و ما بعدها. ٣- شذرات الذهب لابن العماد
١٠٩٣/١ - ٤- تاريخ بغداد للاخطيب التبريزي ١١/٢٦ ط السعادة. ٥- الأنساب
للسمعاني ص ٢٥٨ - ٦- طبقات النحويين للزبيدي ص ٥٥، ٧- الامتاع و الموائسة
لأبي حيان التوحيدى ١/١٣٣، ٨- و بغية الوعاة للسيوطي. و يذكر كارل
بروكلمان ان كتاب الجامع في تفسير القرآن للرماني قد استفاد منه الزمخشري.
تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ١٨٩.

الرماني— من الجزء الأول من تفسير علي بن عيسى النحوي الرماني من الوجهة الأولى من القائمة التاسعة من الكراس الثاني بلفظه اقول : في الرحمن الرحيم يقال : كرر ذكر الرحمن الرحيم والجواب عن ذلك للمبالغة والتأكيد وللدلالة على ان الله من النعم ما لا يفى به نعم منعم فجرى على كلام العرب اذا أرادوا الدلالة على المبالغة كما قال الشاعر: (١)

هلا سألت جموع كندة يوم ولوا أين أيننا

قال الآخر:

كم نعمة كانت لكم كم نعمة وكم وكم

وقال الآخر

وانت تقول في الكلام اذهب اذهب - اعجل اعجل - ليدل على الغاية والمبالغة الخ (٢)

التيبان - تكرار الكلام من جنس واحد ، وبعضه يجري على بعض كتكراره في : قل يا ايها الكافرون وسورة المرسلات و الرحمن ، فالوجه فيه ، ان القرآن نزل بلسان القوم و مذهبهم في التكرار - ارادة التوكيد وزيادة الافهام معروف كما ان مذهبهم الايجاز والاختصار ارادة للتخفيف وقد يقول القائل : والله لا فعله ثم والله لا فعله اذا اراد التوكيد كما يقول : أفعله ، بحذف اللام اذا اراد الايجاز كل هذا يراد به التوكيد وقد يقول القائل لغيره : اعجل اعجل ، وللرأى ، ارم ارم ، قال الشاعر:

كم نعمة كانت لكم كم نعمة وكم وكم

(١) ينسب الى عبيد بن الأبرص . راجع ديوان عبيد ص ٢٨ ط اربا .

(٢) سعد السعود على بن طاووس ص ٢٥ . ط . النجف ١٣٦٩ هـ .

وقال آخر

هلا سألت جموع كـ... مدة يوم ولوا أين أين

فأما تكرار معنى واحد بلفظين مختلفين كقوله "الرحمن الرحيم" و قوله: "يسمع سرهم و نجواهم" و النجوى هو السر فالوجه ما ذكرنا من أن عادة القوم تكرير المعنى بلفظين مختلفين اتساعا في اللغة.

الرماني - قوله تعالى: "وعد الله المنافقين و المنافقات و الكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم و لعنهم الله و لهم عذاب مقيم".
انما فصل الكفر من النفاق مع أن كل نفاق كفر ليتبين الوعيد على كل واحد من الصنفين إذ قد يتوهم أن الوعيد عليه من أحد الوجهين دون الآخر و معنى هي حسبهم ، هي كافيتهم في استفراغ العذاب لهم و تقديره هي كافية ذنوبهم و وفاء لجزاء أعمالهم (١)

التبيان: وعد الله المنافقين و المنافقات نار جهنم . . .
و كذلك الكفار الذين يتولونهم فلذلك افردهم بالذكر ليعلم ان الفريقين معا يتناولهم الوعيد و قيل هي حسبهم أي: هي كفاية ذنوبهم لجزاء عملهم. (٢)

و هكذا نرى الطوسي ينظر الى الرماني و الى آراءه بعين الاعتبار فيقول في "حم": قد ذكر فيما تقدم ان "حم" اسم للسورة و انه أجود الاقوال. قال الرماني و في تسمية السورة "حم" دلالة على ان هذا القرآن المعجز كله من حروف المعجم لانه سمي به ليدل عليه بأوصافه، و من أوصافه انه مفصل قد فصلت كل سورة من أختها، و من أوصافه انه هدى و نور فكأنه قيل هذا اسمه الدال عليه بأوصافه (٣)

(١) سعد السعود على بن طاووس ص ٢٥١.

(٢) التبيان ج ١ ص ٨٤٢ ط - طهران.

(٣) التبيان ج ١ ص ٥٧٩ ط - طهران.

وبهذه الموازنة القصيرة اختتم مقالتي هذه وأرجو من الله ان يسدد
خطانا ويرشدنا الى طريق الهدى وان يوفقنا في القيام بدراسة الاتجاهات
المختلفة لتبيان الشيخ الطوسي ومن الزوايا التي لم نكن نعرفها حتى
اليوم ونعني بدراسة منهج الشيخ ومنجاء دراسة مبسطة في اللغة
و البلاغة و النحو والصرف والقراءات والأدب. والسلام عليكم
ورحمة الله وبركاته.